مراسلو التلفزيون العربي في غزّة

معن البياري

كان رفيع القيمة في «احتفاليّة» التلفزيون العربي، المتقشّفة، في عيده التاسع، في مقرّه في لوسيل عصرية الخميس الماضي، أن التحايا كانت فيه وفيرة، ومستحقّة بداهةً، إلى المراسلين في قطاع غزّة. سمعناها نحن الحضور، مقرونةً بدعواتٍ إلى العليّ القدير أن يُبقيهم وأسرهم سالمين. شاهدْنا زملاءهم من مختلف أقسام التلفزيون، الصحافية والإدارية والتقنية، يُزجونها إليهم، من على شاشة قدّامنا، بفناضٍ من المحبّة، وبكثير من إعجابٍ بهم، وهم الذين أكّدوا كفاءتهم المهنيّة العالية، في نقل الحقائق حيّة من هُناك، من شمال قطاع غزّة وشرقه وجنوبه، من مخيّماته ومدنه وأريافها، من شوارعه وحاراته، من خيام نازحيه ومدارسه ومستشفياته، من مدافن شهداته، حيث الشعب الفلسطيني يغالب أسوأ صنوف الفتك والقتل والتهجير والتجويع والتعطيش والحصار.

كان باسل خلف وعبد الله المقداد وصالح الناطور وأحمد البطّة أبطالاً لا شك، منتسبين إلى مهنتهم، إلى ناسهم، يعرفون تماماً المسؤولية العظيمة التي أخذتهم الأقدار إليها، ويعلمون جيداً الاختبار القاسي الذي وجدوا أنفسَهم فيه أمام الجمهور العريض الذي ينتظر منهم الرواية الموثّقة الموثوقة عن كل اعتداء، في أيٍّ من ساعات الليل وأيٍّ من أوقات النهار، فأثبتوا، بجدارةٍ مشهودةٍ، أنهم على قدْر هذه المسؤولية، بل وتفوّقوا، وأكّدوا المؤكّد عن أهليّة الإعلامي العربي وتميّزه. الفلسطيني هنا خصوصا، إذا ما تيسّرت له إدارةٌ خبيرةٌ في مؤسّسةٍ صاحبة رسالة، في تأدية وظيفته الأساس، صحافياً أولاً وأخيراً. يجدُ في جمع كلّ روايا صورة الحدث وأطرافها، ثم يُنجز وينجح.

كان رائعاً (لا شطط هنا) أن نشهد، أمامنا على شاشة الاحتفالية، عبد الله وصالح وباسل وأحمد، يتلقّون تحايا الامتنان لهم من زملائهم، ثم يردّون بكلماتٍ مقتضبة، مغتبطين، بتواضعٍ نادر المثال، يُخبرون الجميع بأنهم إنما يؤدّون واجباً.

يُتقن صالح الناطور صنعتَه، تستشعر في رسائله أن ابن المهنة حقّاً، لا يتوسّل إنشاءً ولا مرسلة. وهو الذي يقيم في خيمة نزوح في رفح مع والديْه وأشقائه، بعد نزوح سابقٍ في خيمة في خانيونس كان فيها مع زوجتِه وأبنائه الذين أصبحوا في منزل أقارب لهم. وسبق أن أخبر «العربي الجديد» إنه كان محظوظاً لحصوله على خيمة!. وهذا حالُ الشعب الفلسطيني هناك. بدا على الشاشة ونحن نتلقّف كلماته، في العيد التاسع للتلفزيون، على ثقةٍ بأن النّجاح جديرٌ به... ولم تهتزّ في أيٍّ من أيام العدوان ثقة المشاهدين بهذا النجاح الذي يليق باسمٍ ورفاقه.

فقد الشاب المجدّ، الملتحق بالتلفزيون العربي في غضون المذبحة، أحمد البطّة، والدته وشقيقته وعدداً من أبنائها قبل أيام، في واحدة من جرائم العدو في خانيونس التي نزحوا إليها، وعمّه في جريمة أخرى. غير أنه طوى ألَمه، وهو الذي يعرف أن الحياة في غزّة ليست كما أيّ حياة في أي مكان آخر، فظلّ الحزن فيه، ثم استأنف عمله بالمثابرة المعهودة فيه. هناك، في مخيّم النصيرات، يقيم عبدالله المقداد في منزله الذي قصفه الجيش سابقاً، وهو الذي انتشل أطفاله وزوجته من تحت الرّكام ناجين بعد قصفٍ استُشهد فيه ثلاثةٌ من أبناء خاله. يُغالب الصحافي الدؤوب أوضاعاً شديدة الصعوبة، ويوازي بين حرصه على عائلته وحرصه على أدائه رسالته التلفزيونية المتقنة. أشار مدير التلفزيون العربي، الزميل عبّاد يحيى، في كلمته في الاحتفالية إلى «أرشيفٍ» ثمين القيمة عن الحياة في غزّة قبل العدوان في تقارير الزملاء هناك... بعد انتهاء العدوان سيكون الذي صنعوه وثائق عن صمود ومعاناة، وعناوين بطولة فيهم، لهم السلامة جميعاً.

دولة الرعاية

أحمد سعداوي

نشأ النظام السياسي العراقي الجديد وأُنشئت الدولة العراقية بعد العام 1920 برعاية واضحة من قوّة الاحتلال في وقتها المملكة المتحدة. ظلّ الوجود البريطاني مدار نقاش وصراع بين النخب السياسية وصفحات الجرائد العراقية إلى ثلاثة عقود، وكانت مطالب القوميين والشيوعيين، التي يكرّرونها دائماً، جلاء «الوجود العسكري البريطاني وفكّ ارتباط العراق بالجنيه الإسترليني وتأميم المصالح الاقتصادية، وأهمها المنشآت النفطية. وبالتدقيق، سنرى أن القوميين كانوا يطالبون بالانتقال إلى دولة رعاية أخرى، هي مصر ومعسكرها العالمي، والشيوعيون كانوا يعتبرون، بشكل بديهي، أن الاتحاد السوفييتي ودول المعسكر الاشتراكي هم مظلة الرعاية المفضّلة. حدث بعد ثورة 1958 أن انخفض العسكرية والسياسية وجّهت العراق إلى هذين الراعيين، وفق الارتباط مع دولة الرعاية البريطانية. وظل الاتحاد السوفييتي راعياً للانظمة السياسية المتلاحقة حتى مطلع التسعينيات، والتي صادفت دخول العراق في عزلة العقوبات الدولية، وأيضاً الخضوع إلى إكراهات القطب الواحد الذي مثّلته أميركا، وسيطرتها على النظام الدولي.

من المفارقات، مثلاً، أن حكومة العسكريين الثوار نقلت مشروع بناء فندق الهيلتون في بغداد من الشركة الأميركية التي كانت تعمل عليه بناءً على عقد مع النظام الملكي السابق إلى شركة سوفييتية، ثم توقّفت الأخيرة عن العمل في المشروع وأهمل بعدها. لم يفكر العسكريون بـ«المصلحة الوطنية» قدر تفكيرهم بالتحارم مع دولة الرعاية. وهذا التحارم هو الذي جعل التسليح الأساسي للعراق في ظل نظام صدّام حسين روسيّاً، وفوجئ كثيرون، تحت ضغط الهجمات الإرهابية لتنظيم القاعدة، بجلاء عشرات من الخبراء الروس في محطات توليد الطاقة الكهربائية ومصافي النفط في العراق. فهم كانوا المعتمدين فيها، وفي مرافق حيوية أخرى. انقلب الحال بعد 2003 لتكون أميركا الدولة الراعية للنظام السياسي الجديد، وهي تمارس هذا الدور، ولكن ليس باتساق وسلاسة، وإنما بالتزامح مع دولة رعاية أخرى دخلت على الخط، إيران التي يعتمد العراق بشكل أساسي على الكهرباء التي يستوردها منها، كما أنّ جزءاً كبيراً من السوق الاستهلاكي للمواد الغذائية والصحية وبعض الصناعات الخفيفة يأتي من إيران. حتى المنتجات الزراعية، وفي السنوات الأخيرة، صارت دور النشر تطبع في الطابع الإيراني لرخص أجورها قياساً بالمطابع اللبنانية.

الاعتماد الاقتصادي على إيران كبير، ولا يمكن سدّه هكذا بجرّة قلم. ولكن، سوى ما ذُكر، لا تستطيع إيران تعويض الادوار التي تقوم بها أميركا لـ«رعاية» العراق. بل هي ربما لا تفكّر بتولي هذه الأدوار مطلقاً، وإنما تستفيد من رعاية أميركا العراق في التنفيس عن أزمتها الاقتصادية الخانقة بسبب العقوبات الطويلة. ومثلما كان الأمر في بدايات القرن العشرين مع النخب العراقية المتبرّمة والمنزعجة من دور الرعاية التي كانت تمثّله بريطانيا، وأنه يسلب جزءاً من السيادة والاستقلال العراقيين، فإن نخباً عراقية كثيرة اليوم ترى هذا الاعتماد الكبير على أميركا يمثل واحداً من أشكال الاحتلال الناعمة، وأن اكتمال السيادة العراقية لن يكون إلا بالتخفّف من ضرائب الاعتماد على أميركا في حماية واردات النفط وفي الدعم اللوجستي والاستخباري ضد خلايا تنظيم داعش، وفي تزكية العراق مالياً واقتصادياً للتعاقدات مع الدول الأخرى، وغيرها من ملفّات تمسك بها أميركا بقبضة صلبة. لكن هذه الأصوات تنظر إلى جذر المشكلات، وتحاول التنبيه إلى حلّها، أو على الأقل: وضع استراتيجية واضحة لإدارة واقتصادية وتعاملاتٍ مالية، تذهب أموال النفط العراقي المُباع غالبا إلى الفيدرالي الأميركي الذي يقوم بالتحويل إلى بغداد وفقاً لآلية مُتّفق عليها. لقد استعانت بغداد بالقوّات الأميركية عام 2014، أي بعد نحو ثلاثة أعوام من انسحاب القوات الأميركية من العراق عام 2011، إثر اجتياح عناصر تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) مدناً عراقية عديدة واعلنوا دولتهم (الخلافة) من على منبر الجامع النوري في الموصل في يونيو/ حزيران 2014، حتى اقترب مسلحو التنظيم من بغداد؛ بوهنم لم تجد الحكومة العراقية من بد سوى دعوة القوات الأميركية إلى محاربة التنظيم ومنع سقوط بغداد بيد المسلحين، فما كان من واشنطن إلا أن شكّلت تحالفا دوليا بقيادتها لمحاربة التنظيم؛ بوهنا كانت الطائرات الأميركية في السماء تحمي المستشارين الإيرانيين في الأرض، وفي صدارتهم قاسم سليماني الذي عادت واشنطن لتغتاله عام 2020.

تراقب إيران المشهد بأكمله، والعمليات العسكرية الصهيونية ضد مليشياتها في كل المنطقة، وكذلك العمليات الجوية ضد الحوثيين، وفي الوقت ذاته، العلاقات «الدافئة» بين واشنطن والرياض والدوحة وسواها، والتنسيق مع تركيا بخصوص غزّة كذلك، وهذا يعني تراجع موقع إيران في الاستراتيجية الأميركية، فقد كانت «معتمَدة» من الأخيرة في «السيطرة» على المنطقة العربية، لا سيما بعد غزو العراق في 2003، بينما تبدو الآن أقرب إلى التحييد، إن لم نقل التحجيم، رغم غياب استراتيجية أميركية واضحة بخصوص هذا الأمر. رغم ذلك، يهمّش الحراك الأميركي تجاه مجريات العدوان على غزّة إيران، وربما دفعها هذا إلى إطلاق صواريخ بعيدة المدى إلى كل من أربيل وإدلب وباكستان لخلط الأوراق، وللفت نظر الإدارة الأميركية، إلى أن ثمّة ترتيبات في غزّة أو المنطقة يجب ألّا تتجاهل المصالح الإيرانية، كما من قبل.

لا يبدو أن هناك تنسيقاً بين دول الخليج ومصر والأردن مع إيران بخصوص الوضع في غزّة، وكل النقاشات التي دارت منذ «طوفان الأقصى» ليس لإيران موقعٌ فيها، والمبادرات التي تُطرح بخصوص اليوم التالي في غزّة توضع بالضد من التمدّد الإيراني في المنطقة؛ ففي لبنان، الغاية، وتؤكد الاتصالات الأميركية مع بقية الدول الخليجية ضرورة حلّ الدولتين، وأنْ لا إمكانية لاستئناف علاقات التطبيع من دون إيجاد حلّ للمسألة الفلسطينية وليس فقط إيقاف العدوان على غزّة، ولا مشاركة في إعمار غزّة قبل ذلك.

يتجنّبون الحرب الإقليمية ويتّجهون إليها

عمار ديوب

بدا، مع عملية طوفان الأقصى في 7 أكتوبر/تشرين الأول، أن الولايات المتحدة وإيران تتجنّبان الحرب الإقليمية؛ فأميركا لجمت الدولة الصهيونية عن مهاجمة حزب الله في لبنان، وأكّدت إيران بدورها أن لا صلة لها بالعملية، وضبطت حزب الله. رافقت المواقف هذه عمليات عسكرية وأمنية محدودة، ومضبوطة، كالمناوشات على الحدود اللبنانية، وإطلاق الحوثيين الصواريخ وتهديد السفن المتجهة نحو الدولة الصهيونية، ولكن ذلك أعاق حركة السفن التجارية الضخمة في باب المندب ووصولاً إلى قناة السويس، ويُهدّد بأزماتٍ اقتصادية إضافية لمختلف الدول، وتطوّر الأمر أخيراً إلى عمليات عسكرية من تحالف «الازدهار» بقيادة الولايات المتحدة، وأعادت الأخيرة تصنيف الحركة الحوثية منظمة إرهابية، وتتدارس وضع خطة عسكرية مستمرة تستهدف الحوثيين، كما نشرت صحيفة واشنطن بوست أخيراً، وفي الوقت ذاته، شهدنا عمليات عسكرية للمليشيات التابعة لإيران وضد قواعد عسكرية أميركية في سورية والعراق، وردّت عليها أميركا؛ ولم تتوقف الدولة الصهيونية عن استهداف شخصيات عسكرية وأمنية بارزة في الاستخبارات الإيرانية التابعة للحرس الثوري.

لا يمكن عزل أيّة تحرّكات سياسية أو عسكرية أو أمنية في المنطقة بعيداً عما يجري في غزّة، والتهديد الخطير الذي أصبحت به الدولة الصهيونية، حيث استطاعت قوّة عسكرية فلسطينية «صغيرة» أن تشكل تهديداً أمنياً وعسكرياً ووجودياً، وقد استدعى تدخّلاً غربياً لحمايتها، وهذا يدلّل على ضعفٍ شديدٍ في الدولة الصهيونية، ويهدّد بزوالها، وهو ما يتحدّث به كثيراً البروفيسور اليهودي إيلان بابيه، ويأتي قرار محكمة العدل الدولية، أخيراً، ليضفي عزلة كبيرة عليها في العالم. الآن، أصبحت الدولة الصهيونية في وضع سيئ، فهي تشنّ إبادة جماعية في غزّة؛ فرغم مرور قرابة ثلاثة أشهر ونصف شهر، لم تتوقف عمليات المقاومة، وفشلت مراحل العملية العسكرية الصهيونية بشكل كامل، ولم تستطع قتل قادة «حماس»، ولا اجتثاث الحركة ولا تهجير الناس خارج قطاع غزّة، ويظل هدفاً لدولة العدو، ولا استطاعت إعادة الأسرى.

الفشل الكبير هذا، ومقتل عدد كبير من الجنود الصهاينة، ووجود الآلاف منهم في حالة سيّئة للغاية، وتوجيه الاتهام لقادة الدولة الصهيونية بشبهة الإبادة الجماعية أمام محكمة العدل الدولية، وهناك الانتخابات الرئاسية الأميركية المقبلة، كل هذا يستدعي إيجاد حلّ ما، من وجهة نظر الإدارة الأميركية، يحفظ أمن الدولة الصهيونية. هذا الفشل، والضغوط الشديدة التي تلاحق الإدارة الأميركية لإيقاف إطلاق النار، واتساع الحركة الدولية المتضامنة مع فلسطين وغزّة، والأسباب سابقة الذكر، دوافع متعدّدة لمقاربة جديدة للوضع في غزّة. وقد كانت زيارة بلينكن إلى المنطقة أخيراً لهذه الغاية، وتغيراتٍ ستطاول عديداً من دوله، مع استعدادات متواصلة لفتح إسرائيل جبهتها الشمالية مع لبنان، في وقتٍ تستعد فيه واشنطن أيضا إلى إرسال مزيد من التعزيزات العسكرية إلى المنطقة، ومن بينها العراق. بالتالي، من مصلحة إيران ولمليشياتها في العراق التفاهم على الانسحاب، لا أن يتم بطريقة تفتح باباً لفوضى قد لا تريدها إيران حالياً. رغم أن بغداد تتحدّث عن انطلاق حوار ثنائي مع واشنطن لوضع ترتيبات مرحلة الانسحاب الأميركي من العراق، إلا أن البيت الأبيض أعلنها صريحة، لا انسحاب من العراق، فأميركا تدرك أن خطر «داعش» ما زال ماثلاً، وأنه هذه المرة قد لا يهدّد العراق وسورية فحسب، بل يمكن أن يمتد إلى مناطق أوسع في إقليم ما زال مشتعلاً أصلاً، بالتالي فإنّ تفاهماتٍ ما تحت الطاولة هي التي ستحدّد مصير العراق، وليس مصير الوجود الأميركي فيه.

(إعلامي عراقي في الدوحة)

> تعلم حكومة السوداني أن أي خروج أميركي من دون اتفاق بين بغداد وواشنطن سيؤدي إلى كوارث

أميركا والانسحاب من العراق

إياد الدليمي

تجتهد الأطراف السياسية في العراق، أو هكذا يبدو، من أجل وضع نهاية للوجود العسكري الأميركي في البلد، في أعقاب هجمات عديدة شنّتها الولايات المتحدة على مواقع ومقارّ تابعة لما يعرف بالحشد الشعبي العراقي، والتي ادّت إلى مقتل عدد من قادته، ردّا على هجمات مماثلة قامت بها فصائل مسلحة منضوية تحت راية الحشد الشعبي، بسبب ما تصفه بالدعم الأميركي لإسرائيل في عدوانها على غزّة، علماً أن غالبية العمليات التي تقوم بها تلك الفصائل تنسبها إلى جبهة وهمية أطلقت عليها اسم «المقاومة الإسلامية العراقية»، والجميع يعرف أنها ليست سوى مجموعة من الفصائل المسلحة التي تنتمي للحشد الشعبي، ولبعضها تمثيل سياسي في الحكومة الحالية.

للولايات المتحدة في العراق اليوم 2500 جندي بينهم مستشارون، ولديها عدّة مواقع وقواعد في عموم البلاد، ناهيك عن وجود دبلوماسي كبير يتمثل في السفارة في بغداد والقنصلية في أربيل والأخرى في البصرة، تُضاف إلى هذا كله وذاك علاقاتٌ تجارية واقتصادية وتعاملاتٌ مالية، تذهب أموال النفط العراقي المُباع غالبا إلى الفيدرالي الأميركي الذي يقوم بالتحويل إلى بغداد وفقاً لآلية مُتّفق عليها. لقد استعانت بغداد بالقوّات الأميركية عام 2014، أي بعد نحو ثلاثة أعوام من انسحاب القوات الأميركية من العراق عام 2011، إثر اجتياح عناصر تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) مدناً عراقية عديدة وأعلنوا دولتهم (الخلافة) من على منبر الجامع النوري في الموصل في يونيو/ حزيران 2014، حتى اقترب مسلحو التنظيم من بغداد؛ بوهنم لم تجد الحكومة العراقية من بد سوى دعوة القوات الأميركية إلى محاربة التنظيم ومنع سقوط بغداد بيد المسلحين، فما كان من واشنطن إلا أن شكّلت تحالفا دوليا بقيادتها لمحاربة التنظيم؛ بوهنا كانت الطائرات الأميركية في السماء تحمي المستشارين الإيرانيين في الأرض، وفي صدارتهم قاسم سليماني الذي عادت واشنطن لتغتاله عام 2020.

منذ بدء الحرب الإسرائيلية على غزّة واستهداف الفصائل العراقية المسلحة قواعد أميركية في العراق وسورية، ثم الرد الأميركي باستهداف مواقع تابعة لتلك الفصائل، وحكومة محمد شيّاع السوداني في حرج شديد، فهي تدرك ما معنى هذه المواجهة إن اتسعت، وهي تعرف جيّدا أن مسك العصا من المنتصف في مثل هذه المواقف لن يستمرّ طويلا، وهي تعلم أيضا أن أي خروج أميركي من دون اتفاق بين بغداد وواشنطن سيؤدّي إلى كوارث على مختلف المستويات والقطاعات.

يتحدث ديفيد بولوك، زميل برنامج برنشتاين في معهد واشنطن، عن طبيعة المصلحة الأميركية في البقاء في العراق، فيشير إلى أن واشنطن تحرص على الإبقاء على علاقات وديّة مع العراق، كما أنها تعمل على التصدّي للنفوذ الإيراني ومنع استغلال إيران النفط العراقي، فضلاً عن أن هذا الانسحاب الأميركي قد يمنح فرصة لإيران لزيادة تغلغلها في العراق، وما يشكله ذلك من تهديد لإسرائيل، وحتى دول مجلس التعاون الخليجي. تستثمر إيران ومن خلفها مليشياتها الموزّعة في المنطقة، والعراق على وجه الخصوص، الخطر الأميركي، خصوصاً في ظل الحرب الإسرائيلية على غزّة، وما تبعتها من تداعيات إقليمية وصلت إلى حد تبشير رئيس وزراء الكيان الإسرائيلي، نتنياهو، بشرق أوسط جديد

> تعلم حكومة السوداني أن أي خروج أميركي من دون اتفاق بين بغداد وواشنطن سيؤدي إلى كوارث

كاريكاتير عماد حجاج

إسرائيل تفقد حصانتها أمام القانون الدولي

مصطفى البرغوثي

رغم التقصير الذي أبدته محكمة العدل الدولية في عدم دعوتها إلى وقف فوري لإطلاق النار في قطاع غزّة، ورغم العيب المتضمن في الحديث عن الإفراج عن الأسرى الإسرائيليين من دون ذكر ضرورة الإفراج عن الأسرى الفلسطينيين ومنهم أطفال قصّر، ومختطفون بالآلاف في القطاع، فإنّ حكم محكمة العدل الدولية بقبول الدعوى المرفوعة من جنوب أفريقيا ضد إسرائيل المتّهمة بجريمة الإبادة الجماعية يمثل تحوّلاً تاريخياً جرد إسرائيل، أول مرة منذ 75 عاماً، من حصانتها أمام القانون الدولي، وتهرّبها الدائم من المساءلة، بدعم من الولايات المتحدة والدول الغربية. إذ فقدت إسرائيل تلك الحصانة التي كانت تجعلها فوق القانون الدولي للمساءلة، حتى بعد أن صدر حكم استشاري قاطع بعدم شرعية جدار الفصل العنصري الذي بنته، وعدم شرعية استيطانها الاستعماري، وعدم شرعية إجراءات الضم والتهويد التي تقوم بها في القدس المحتلة. والمفارقة هنا أنّ اتفاقية الإبادة الجماعية التي أنشئت أساساً بسبب ما تعرض له اليهود من جريمة الهولوكوست على يد النازية الألمانية، هو ذاته الذي تحاكم إسرائيل على أساسه بتهمة إرتكاب الإبادة الجماعية ضد الفلسطينيين في قطاع غزة.

تحدّد المادة الثانية من اتفاقية الإبادة الجماعية الأفعال التي تسبب الإبادة الجماعية أنها: قتل أعضاء المجموعة المقصودة (الشعب الفلسطيني).

التسبب في أذى جسدي أو عقلي خطر للمجموعة. فرض ظروف معيشية على المجموعة تهدف إلى تدميرها الجسدي كلياً أو جزئياً. فرض تدابير تهدف إلى منع الولادات داخل المجموعة.

ومن الأمور المهمّة أن جميع قضاة المحكمة، ما عدا واحدة، هي القاضية من أوغندا، صوّتوا لصالح القرارات الستة، أما القاضي المكلف من إسرائيل فاعترض على أربعة من القرارات ووافق على الثالث والرابع. وسارعت أوغندا للتنصل من أي مسؤولية عن تصويت القاضية الأوغندية، المعروفة بغرابة أطوارها، وكانت أكثر انحيازاً لإسرائيل من القاضي الإسرائيلي نفسه. وإذا تمعنّا في مضمون قرار محكمة العدل الدولية ومستنداته، والذي انصح المهتمين بقراءته كاملاً، وعدم الاستناد إلى التعليقات العابرة، وبعضها جاهل، لأن قرار المحكمة يفتح الباب على إدانة إسرائيل بارتكاب كبرى الكبائر في العرف الإنساني المعاصر، وهي جريمة الإبادة الجماعية، ولأن خلاصته تؤدّي إلى أن من المستحيل على إسرائيل أن تنفذ قرارات المحكمة الستة من دون وقف شامل وكامل ودائم لإطلاق النار. إذ كيف يتوقّف جيش الاحتلال عن قتل المدنيين وعدم إبادتهم جسدياً وعقلياً من دون وقف إطلاق النار، وكيف يمكن أن يسمح إقليمياً كبيراً مع بداية «طوفان الأقصى» لا تبدو كذلك في الأسابيع الأخيرة، بل كان قصفها الصاروخي للفت النظر، وقد أحدث لها مشكلات كبرى مع باكستان والحكومة العراقية، تجتهد لتطويقها، وبالتالي، تجد نفسها محاصرة. لا تبدو طهران الوحيدة المتضرّرة، بل كذلك الدولة الصهيونية، فهي تنطلق من سياسة التهجير، وعدم الاعتراف بحلّ الدولتين، وهذا بالضد من أيّة مبادرة قد تتضمّن إيقاف إطلاق النار في غزّة وتخفيف الضغوط على الضفة الغربية، خشية إطلاق انتفاضة ثالثة، وهو ما تخافه أميركا أولاً، ولهذا تصرّ على «حلّ الدولتين»، وتخشاه الدول الخليجية المطبّعة ثانياً؛ فإن كانت عملية طوفان الأقصى قد قضت على أوهام التطبيع من دون إيجاد سلطة فلسطينية وطنية في أراضي الـ67، فإن قيام انتفاضة ثالثة، وعلى أرضية الانتصار في غزّة، ستتعدّى آثارها الضفة إلى أراضي الـ48، وربما ترفع سقف التفاوض للأنظمة العربية مع الدولة الصهيونية، ومن دون ذلك، ستكون أغلبية الأنظمة العربية مهدّدة بالسقوط، أو سيتواجه مشكلات كبرى مع شعوبها.

الآن، هناك تجنّبٌ مضبوطٌ لمنع اندلاع الحرب الإقليمية، وحصرها في غزّة، ولكن الدولة الصهيونية أصبحت بحالة «هزيمة»، وهي انتصارٌ «مرٌّ» للمقاومة؛ فغزّة محاصرة من الدولة الصهيونية ومن مصر؛ والدول العربية تتجنّب التفاوض على ارضية الانتصار، وسقط من أهل غزّة أكثر من مائة ألف شهيد وجريح، وما تتداوله الصحافة من تسريبات وأخبار لا ينطلق من الانتصار هذا، وهو ما ترفضه الدولة الصهيونية ومعها الإدارة الأميركية ودول غربية كثيرة وبعض قلة قليلة من خائبي الأمل وكثرة كاثرة من المستبشرين بحكم محكمة العدل الدولية. تودّ هذه المقاربة المتواضعة الإضاءة على القيمة المضافة في هذا الحكم المتعلّق بجريمة الإبادة الجماعية، التي ترتكبها دولة الاحتلال، في قطاع غزّة، على مدى نحو أربعة أشهر طافحاتٍ بالدم والدمار والتهجير، لعلنا نتمكّن من الإسهام بقسطٍ متواضعٍ في النقاش المحتدم بشأن مآلات التدابير المتخذة، من وجهة نظر مغايرة.

ومن غير أي تقليل أو تبخيس بهذه القرارات الصادرة بأغلبية ساحقة من حكّام أرفع مرجعية قضائية دولية، أو الاستهانة بفاعلية ما سيترتّب على تدابيرها الاحترازية المؤقتة من نتائج محتملة، حتى وإن امتنعت حكومة بنيامين نتنياهو عن تنفيذها في المدى القريب، تظلّ هذه القرارات الإلزامية، بحكم نصّ اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية، ذات جدوى بالغة الأهمية، سيّما في البعد القيمي، الغائب عن حوارات معظم المعلّقين المنخرطين في النقاش السياسي العام، أو ذوي الاختصاص، المتبارزين في لفت الانتباه حول قصور المحكمة في الاستجابة لطلب إصدار قرار احترازي واضح بوقف إطلاق النار.

تنبني هذه المقاربة على فرضية أن قوة دولة الاحتلال ليست في عديد عسكرها وأعداد دبّاباتها وطائراتها فقط، ولم تكن كفّة ميزانها راجحةً ذات يوم. بفعل تقدّمها الإبادة الجماعية، ذات جدوى بالغة الأهمية، سيّما في البعد القيمي، الغائب عن حوارات معظم المعلّقين المنخرطين في النقاش السياسي العام، أو ذوي الاختصاص، المتبارزين في لفت الانتباه حول قصور المحكمة في الاستجابة لطلب إصدار قرار احترازي واضح بوقف إطلاق النار.

تنبني هذه المقاربة على فرضية أن قوة دولة الاحتلال ليست في عديد عسكرها وأعداد دبّاباتها وطائراتها فقط، ولم تكن كفّة ميزانها راجحةً ذات يوم. بفعل تقدّمها التكنولوجي والاقتصادي فحسب، أو بفضل تحالفاتها الواسعة، سيما مع أميركا، وإنما كانت فوق ذلك كله متفوّقة على محيطها كله، بفعل ما رُوّجته عن نفسها، بنجاح، دولة ديمقراطية وحيدة في صحراء الشرق الأوسط، وأنها نبتٌ حضاريٌّ متفتّحٌ وسط بيئة متوحّشة من الأشرار والإرهابيين وأحفاد تجار العبيد، فيلاً فاخرة في قلب غابة مليئة بالضباع والذئاب و«الوحوش الآدمية». فقد قدمت دولة الاحتلال نفسها طوال الوقت الطويل أنها الضحية الأبدية.

عقب «طوفان الأقصى» وعلى وقع هزيمتها المدوّية، حاولت دولة الاحتلال أن تجدّد صورتها التي تحطّمت على غلاف غزّة، استعادة هيبتها ومضاء سيفها وقوة ردعها، واسترداد روحها المعنوية المهزّقة، ومن ثمّ إعادة بناء مظلوميّتها الملفقة، بالحديث الكاذب عن قطع رؤوس الأطفال واغتصاب النساء، غير أن الاحتلال تخطّى حدود القوة، أفرط كثيراً في استخدام آلة قتله المدمّرة، وقارف كل جريمة أخلاقية ممكنة، الأمر الذي قلب عليه الرأي العام في المطرح الأكثر أهمية له، أوروبا وأميركا.

على هذه الخلفية الدامية، المتشكّلة في غزّة، جاءت المحكمة الدولية، بحكمها غير المثالي ربما، لتضع دولة الاحتلال في قفص الاتهام بافتراف أم الجرائم، الإبادة الجماعية، ولتستكمل بهذه السابقة غير المسبوقة عملية جلاء صورة الدولة المارقة، القلعة الباغية المحصّنة ضد كل مساءلة، كما أتت لائحة الشبهات والتهم المُحكمة، بما في ذلك إلزام دولة الاحتلال بالامتناع عن التجويع والتقتيل للغزّيين، وبتقديم تقرير مفصّل عما طلبته الهيئة القضائية من أجوبة عن جملة من الأسئلة المحدّدة، في غضون شهر، كعملية إخضاع لا مراء فيها، لتلك الغطرسة ونهج الغرور، اللذيْن اتّسمت بهما تصرّفات آخر دولة احتلال.

بكلام آخر، فضّت محكمة العدل الدولية، بمجرّد قبولها الدعوى، بنيان الرواية الكلاسيكية الإسرائيلية، القائمة على الحسّ بالتفوّق العرقي والعدالة والأحقية، ناهيك عن المظلومية الأبدية، ونقلتها من موضع الزعم بالغلبة والتميّز والفرادة إلى هامش الهامش وحضيض الدونية الأخلاقية، وأهم من ذلك كله، جرّدتها شبهة تهمة الإبادة الجماعية من كل مُثل ومبادئ مزعومة، بما في ذلك الزعم بالتماثل مع الغرب في قيمه العليا، كما أسقطت من بين يديها درّة تاج قوّتها الناعمة، ولعلّ هذه هي القيمة النوعية المضافة في حكم محكمة العدل الدولية.

> ليس مستبعداً توسّعُ في الحرب الإقليمية، وإن إمكانية ان تتبنّى الإدارة الأميركية جملة عسكرية مُستدامة ضد الحوثيين قد تدفع بهذا الاتجاه

هناك إصرارٌ على ترسيم الحدود وإيقاف الحرب ودفع حزب الله إلى الابتعاد عن الحدود، وهو ما سيُطرح لاحقاً الجدوى من بقاء سلاحه؛ وفي اليمن، تتجه الأوضاع إلى الاستقرار، لا سيّما مع استمرار الاتفاق بين السعودية والحوثيين على إيقاف العداء رغم التصعيد أخيرا بين «تحالف الازدهار» الأميركي والحوثيين. وفي العراق، هناك خلافات كبيرة بخصوص مستقبل المليشيات الطائفية التابعة لإيران، والتململ الواسع ضدها في الأوساط الشعبية، وفي سورية الأمور في غاية التعقيد. إيران التي ظهرت لاعباً إقليمياً كبيراً مع بداية «طوفان الأقصى» لا تبدو كذلك في الأسابيع الأخيرة، بل كان قصفها الصاروخي للفت النظر، وقد أحدث لها مشكلات كبرى مع باكستان والحكومة العراقية، تجتهد لتطويقها، وبالتالي، تجد نفسها محاصرة. لا تبدو طهران الوحيدة المتضرّرة، بل كذلك الدولة الصهيونية، فهي تنطلق من سياسة التهجير، وعدم الاعتراف بحلّ الدولتين، وهذا بالضد من أيّة مبادرة قد تتضمّن إيقاف إطلاق النار في غزّة وتخفيف الضغوط على الضفة الغربية، خشية إطلاق انتفاضة ثالثة، وهو ما تخافه أميركا أولاً، ولهذا تصرّ على «حلّ الدولتين»، وتخشاه الدول الخليجية المطبّعة ثانياً؛ فإن كانت عملية طوفان الأقصى قد قضت على أوهام التطبيع من دون إيجاد سلطة فلسطينية وطنية في أراضي الـ67، فإن قيام انتفاضة ثالثة، وعلى أرضية الانتصار في غزّة، ستتعدّى آثارها الضفة إلى أراضي الـ48، وربما ترفع سقف التفاوض للأنظمة العربية مع الدولة الصهيونية، ومن دون ذلك، ستكون أغلبية الأنظمة العربية مهدّدة بالسقوط، أو ستواجه مشكلات كبرى مع شعوبها.

الآن، هناك تجنّبٌ مضبوطٌ لمنع اندلاع الحرب الإقليمية، وحصرها في غزّة، ولكن الدولة الصهيونية أصبحت بحالة «هزيمة»، وهي انتصارٌ «مرٌّ» للمقاومة؛ فغزّة محاصرة من الدولة الصهيونية ومن مصر؛ والدول العربية تتجنّب التفاوض على ارضية الانتصار، وسقط من أهل غزّة أكثر من مائة ألف شهيد وجريح، وما تتداوله الصحافة من تسريبات وأخبار لا ينطلق من الانتصار هذا، وهو ما ترفضه الدولة الصهيونية ومعها الإدارة الأميركية ودول غربية كثيرة وبعض قلة قليلة من خائبي الأمل وكثرة كاثرة من المستبشرين بحكم محكمة العدل الدولية. تودّ هذه المقاربة المتواضعة الإضاءة على القيمة المضافة في هذا الحكم المتعلّق بجريمة الإبادة الجماعية، التي ترتكبها دولة الاحتلال، في قطاع غزّة، على مدى نحو أربعة أشهر طافحاتٍ بالدم والدمار والتهجير، لعلنا نتمكّن من الإسهام بقسطٍ متواضعٍ في النقاش المحتدم بشأن مآلات التدابير المتخذة، من وجهة نظر مغايرة.

ومن غير أي تقليل أو تبخيس بهذه القرارات الصادرة بأغلبية ساحقة من حكّام أرفع مرجعية قضائية دولية، أو الاستهانة بفاعلية ما سيترتّب على تدابيرها الاحترازية المؤقتة من نتائج محتملة، حتى وإن امتنعت حكومة بنيامين نتنياهو عن تنفيذها في المدى القريب، تظلّ هذه القرارات الإلزامية، بحكم نصّ اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية، ذات جدوى بالغة الأهمية، سيّما في البعد القيمي، الغائب عن حوارات معظم المعلّقين المنخرطين في النقاش السياسي العام، أو ذوي الاختصاص، المتبارزين في لفت الانتباه حول قصور المحكمة في الاستجابة لطلب إصدار قرار احترازي واضح بوقف إطلاق النار.

تنبني هذه المقاربة على فرضية أن قوة دولة الاحتلال ليست في عديد عسكرها وأعداد دبّاباتها وطائراتها فقط، ولم تكن كفّة ميزانها راجحةً ذات يوم. بفعل تقدّمها التكنولوجي والاقتصادي فحسب، أو بفضل تحالفاتها الواسعة، سيما مع أميركا، وإنما كانت فوق ذلك كله متفوّقة على محيطها كله، بفعل ما رُوّجته

الهجوم على القاعدة الأميركية... وقواعد اللعبة الإقليمية

محمد أبو رمان

لم تتضح بعد تفاصيل هجوم مسيّرة على قاعدة أميركية على الحدود الأردنية السورية، الواضح حتى اللحظة أن الخسائر الأميركية ثلاثة عسكريين قتلى و30 جريحاً، في حين ما زال اللغط والجدل محتدماً إعلامياً وسياسياً في تعريف موقع البرج 22 الذي جرى استهدافه، بشأن ما إذا كان على الحدود الأردنية - السورية، أم داخل الأراضي الأردنية أم السورية!

السؤال الأكثر أهمية الآن عما إذا كان هذا الهجوم سيعتبر بمثابة متغير جوهري Game Changer في انتشار الصراع إقليمياً أم أنّه تكتيكي مرتفع المستوى مقارنة بالأحداث السابقة؟ سيرتبط الجواب بالردود المتتالية؛ ما إذا كانت ستأخذ طابعاً تكتيكياً، مثلما حدث سابقاً، أي أن تقوم القوات الأميركية، على سبيل المثال، بردود فعل تستهدف المليشيات العسكرية الموالية لإيران (باتت تطلق على نفسها مصطلح «المقاومة الإسلامية في العراق») في سورية أو في الداخل العراقي أم أنّ رد الفعل الأميركي هذه المرّة سيتجه إلى توجيه ضربة مباشرة لإيران؛ وهذا بطبيعة الحال سيؤدّي إلى ردود فعل أخرى أكبر ستحدّد طبيعتها منحنيات تطوّر الصراع العسكري لاحقاً. من الصعوبة حسم الجواب على السؤال السابق، لكن الاحتمالان قائمان في قراءة أولية؛ والهجوم عقّد مواقف الأطراف الرئيسة المعنية بالموضوع ووضعهم على حافّة قرارات خطيرة.

بالنسبة للإدارة الأميركية، من الواضح أنّها لا ترغب بتطوّر الصراع واتخاذه طابعاً إقليمياً، وعملت جاهدة على بعث رسائل متعدّدة بأهمية «عدم توسيع رقعة الصراع»، وعملت على ضبط الأطراف المعنيّة، خصوصاً ما يتعلق بجبهة حزب الله - إسرائيل، وحتى في مستوى الردود التكتيكية على «التحدّي الحوثي» في البحر الأحمر، غير أنه يصعب، هذه المرّة، تصوّر ردود مشابهة، بخاصة في خضم الحملات الانتخابية وتصاعد المزايدات السياسية في واشنطن، والصورة المهزوزة للرئيس جو بايدين، فمن المؤكّد أن التفكير سيكون بأهدافٍ مؤلمة أكثر واستراتيجية أكبر، لكن ليس واضحاً ما إذا كانت طهران نفسها ستكون هدفاً، ما يغيّر قواعد اللعبة بدرجة أكبر أم ستكتفي بضربات قاسية للمليشيات واصطياد قيادات فيلق القدس!

على الطرف الآخر، أظهرت إيران أنّها هي الأخرى تتجنّب الانزلاق إلى مواجهة شاملة وكبيرة مع الولايات المتحدة، واستعاضت عن ذلك بحروب الوكالة والاشتباكات المحدودة والمشاغلة والمشاغبة، لكن السؤال: هل تعتبر طهران ما حدث جزءاً من التكتيكات التي تقوم بها على هامش حرب غزة أو ما يسمى «ساحات الإسناد» أم أنّه ردّ على قتل قيادات إيرانية عسكرية وأمنية بارزة، بخاصة في سورية قبل أيام؟ وهل لدى طهران مخطّط واضح في حال تعرّضت لضربة أميركية بالرد مباشرةً، ما يشعل المنطقة، أم أنّها ستقوم بردود فعل إقليمية وتسخين أكبر وتتجنّب الدخول في مواجهة كبرى كأن توجّه ضرباتٍ أقوى للوجود العسكري الأميركي. وفي كلّ الحالات، من المستبعد أن تطوّر طهران ردّها ليصل إلى استهداف إسرائيل، إلّا إذا بدأت الأخيرة الضربات العسكرية؟!

يقف الأردن في موقف محرجٍ ومربك، فقد اتّخذ مواقف واضحة حاسمة، واعتمد ديبلوماسية تصعيدية غير مسبوقة ضد الحرب الإسرائيلية على غزّة، وشهدت علاقته بتل أبيب توتّراً غير مسبوق، إلا أنّه فوجئ بتصعيد على حدوده الشمالية لحرب المخدّرات والتهريب، ودخل الجيش بمواجهات غير مسبوقة مع تجّار المخدّرات، ومن المعروف أنّ هنالك نفوذاً إيرانياً على الحدود مع سورية، وأنّ هذه التجارة شبكة إقليمية ترتبط بالمليشيات الموالية لطهران، وتمثل مصدراً مهماً لاقتصاد بديل في مواجهة العقوبات الأميركية.

يأتي هذا الهجوم ليضع الموقف الأردني بين حدّين متناقضين في حسابات الأمن القومي؛ الأول تهديد الحكومة اليمينية المتطرّفة في تل أبيب وتوجّهاتها الخطيرة، التي ينظر إليها الأردن بريبة وقلق، والثاني الأمن على الحدود الشمالية والقلق من تصاعد التوتر والهجمات المتبادلة بما يضعه في مواجهة مع حلفاء إيران، الذين يستخدمون دعاية

> فوجئ الأردن بتصعيد على حدوده الشمالية لحرب المخدرات والتهريب، ودخل الجيش بمواجهات غير مسبوقة مع تجار المخدرات

ضد إسرائيل وأميركا الداعم الأكبر لها، والتي وصلت سمعتها وصورتها لدى الرأي العام العربي، بخاصة الأردني، إلى درجة غير مسبوقة من الاستياء، وبوصفها مصدر التهديد الأول للأمن الإقليمي، كما أظهر استطلاع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات أخيراً.

قبل أسابيع قليلة، سرّبت مصادر مقرّبة مما يسمّى حلف الممانعة أنّ المواجهات على الحدود الشمالية الأردنية ليست اعتباطية أو أمنية فقط، بل هي قرار سياسي إيراني بإشغال القواعد الأميركية والغربية على الحدود الأردنية - السورية، ومعروفٌ أنّ طهران تنظر إلى الأردن بوصفه خندقاً معادياً متقدّماً، ولا تستبعد الأردن ضمن قائمة الأهداف في حال حدثت مواجهات كبيرة، الأمر الذي يتطلب تفحّصاً ودراسة متأنيّة لتأطير إحداثيات الموقف الأردني خلال المرحلة المقبلة، والرسائل الأردنية في تعريف ما حدث وقراءته ضمن حسابات الأمن القومي.

لا تقلّ تعقيدات الموقف بالنسبة لكل من الحكومة العراقية والرئيس السوري بشّار الأسد، فالطرفان، بالرغم من تحالفهما مع طهران، لا يرغبان بالدخول إلى حلبة الصراع، ويتجنّبان ذلك منذ البداية، ولديهم حسابات مختلفة تماماً عن طهران، وهي حال الحكومة اللبنانية التي تسعى إلى الضغط المستمر على حزب الله لعدم التورّط بصورة استراتيجية في الحرب الحالية.

ستُرسم المرحلة المقبلة على وقْع عمليات تبادل الرسائل الصادرة عن الأطراف المختلفة ومحاولات الاحتواء والوسطاء؛ بالرغم من وجود ميكانزمات قوية تقف أمام التحوّل إلى صراع إقليمي، فإنّ تدحرج ردود الفعل الكمية قد يؤدّي إلى ما تسمّى نقطة التحوّل Tipping Point، أي أنّ الجميع ينزلق إلى صراع إقليمي له حسابات استراتيجية أعلى مستوى من المرحلة السابقة بأسرها.

(كاتب ووزير أردني سابق)

ليست مجرّد لعبة... خطر كرة القدم الأكبر

عمر حمّادي

«ما بؤوش شبهنا» المدون واليوتيوبر المصري ردّدها كثيراً وبعصبية في أثناء حديثه عن نتائج منتخبه لكرة القدم في بطولة كأس أمم أفريقيا المستمرّة حالياً. قد تبدو الجملة عادية باعتبارها صدرت من شخص ممتعض من الأداء الكروي لمنتخب بلاده، إلا أنها في الحقيقة تلخّص الكثير في علم تحليل الهوية ونشوئها، فالمنتخب يمثل البلد وأبناء البلد. وعليه، يجب أن يكون مشابهاً لأبناء البلد، لا في الشكل فقط، بل أيضاً حتى في الخصوصيات السيكولوجية والتحرّكات داخل الملعب. ولإيضاح النقطة الأخيرة، أستعين بجزءٍ من مقالةٍ كتبها مختصٌّ بالأنثروبولوجيا لخّصت أن أداء لاعبي أي منتخب يُستمدُّ بالضرورة من ظروف (وهوية) البلد الذي خرجت منه، وأعطى الكاتب مجموعة من الملاحظات عن أسباب كثرة المراوغة في منتخب البرازيل الذي خرج معظم لاعبيه من الأحياء الفقيرة المكتظّة التي تتطلب قدراتٍ ومهارات للمراوغة اثناء المشي والركض داخل احياء الصفيح. وبالمثل، يمكن القول إنّ المنتخب الألماني عُرف بالانضباط التكتيكي نتيجة طبيعية لمجتمع منظم قائم على صناعة تحتاجُ كثيراً من الدقّة والتأنّي والانضباط.

وعليه، يكون المنتخب الكروي، ومنه منتخب بلدي العراق الذي يلعب حالياً في منافسات قارّة آسيا انعكاساً لطبيعة البلد وأبنائه في حالة من التمثيل على مستوى «تحت - تحت»، بمعنى آخر من الشعب وإلى الشعب، وهذا ما يتيح لنا الشعور بتمثيل هويّتنا ضمن محفلٍ تتنافس فيه الهويات الأخرى على امتيازٍ يمثل اعترافاً بالتفوّق، وفي هذا المحفل تنصهر الهوية الرياضية لأي منتخب مع الهوية العامة للبلد، الأمر الذي قد يفسّر أسباب إطلاق تسمياتٍ مثل «الفدائيين» على منتخب فلسطين و«النشامى» على منتخب الأردن، و أيضاً أسباب إطلاق هتافات وأغانٍ من قبيل الغيرة العراقية القريبة إلى الغرينتا الإيطالية في المعنى.

يوفّر الانصهار بين الهويتين الرياضية والمجتمعية حاجة نفسية مهمّة لا يمكن لأيٍّ منا العيش من دونها، هذه الحاجة هي الانتماء، وكما جاء في هرم ماسلو الخاص بالحاجة الإنسانية، لا يمكن للفرد أن يعيش من دون الشعور بالحبّ المتبادل وتحقيق الذات والانتماء إلى كيان أوسع يتيح له امتيازاتٍ ويفرض عليه التزامات. وقد تكرّر هذا الأمر أيضاً عند جون بورتن، حيث الحاجة الإنسانية ترتكز على الهوية والاشتراك... وبالعودة إلى المنتخبات الرياضية، فإننا نشعُر بنوع من الارتباط العاطفي والاشتراك يدفعنا إلى التشجيع والشعور بالفخر نوعاً من الاعتراف وتحقيق الذات، وهذا يفسّر التفاخر بين الجماهير بتحقيق الإنجازات عند النقاشات الرياضية، سواء على صعيد الجماهير أو المحللين الرياضيين داخل غرف الأستوديوهات.

وهكذا، يصنع المنتخب، بتمثيله هوية أبناء البلد، حالة من الالتزام والتوقّعات، فالهوية والانتماء تُحدثان نوعاً من الالتزام بسلوك معين مقابل العضوية في الجماعة، وترتبط التوقّعات، بالضرورة، بطبيعة الظروف القائمة، فلا يمكن لجماهير بلدٍ مفكّك سياسياً ومنهار اقتصادياً أن ينتظر فوز منتخبه ببطولةٍ تشارك فيها منتخباتُ دولٍ أكثر استقراراً وازدهاراً سياسياً، ونتائج الدورات الأولمبية، حيث التمثيل الأوسع على مستوى الرياضات تظهر تفوّق الدول الأقوى اقتصادياً وتراجع الدول الأقل إنتاجاً اقتصادياً مع هامش من الاستثناءات، وهكذا يُذكَر فوز العراق بكأس آسيا عام 2007 بوصفه حدثاً إعجازياً حقيقياً حوّل أفراد المنتخب إلى نماذج يتمحور حولهم شعور الشباب بالفخر وتحقيق الذات والانتماء.

ولأنها ليست مجرّد لعبة، فإنّ المنتخب لا يمثل فقط انعكاساً لهوية البلد، بل كيان يمكن أن يصنع هوية جديدة، فأعضاء المنتخب في الحقيقة نماذج يمكن أن تدخل في سرديات الشعب اليومية. ولتبسيط الأمر أكثر، لا يعدّ شعور الانتماء الى جماعة معينة اختيارياً بالطريقة التي يتصوّرها بعضهم، فكل واحد منا أدلج عبر منظومة الأسرة والمدرسة والقبيلة ورجال الدين، ليكون عنصراً جيداً في هويةٍ ما، وعمود هذه الأدلجة السرديات القائمة على قصص لنماذج بعضُها حقيقيٌّ والآخر غير حقيقي، تُحدث شعوراً بالفخر، وتربطنا عبر اللاوعي بكيان الهوية المنتقاة،

> لعبة كرة القدم أهم مما يتصوّر بعضهم، فهي ليست مجرّد رياضة ترفيهية، بل هي محرّكٌ للهوية وبطريقة تفاعلية

وتضع لنا حدود الالتزام والتوقّعات الذي يجب السير عليه، ويمثل لاعبو المنتخب، في بعض الأحيان، تلك النماذج التي يمكن أن تؤثر على سلوكياتنا نوعاً من الارتباط بالهوية. وعليه، لعبة كرة القدم في حقيقتها أهم مما يتصوّر بعضهم، فهي ليست مجرّد رياضة ترفيهية، بل هي محرّكٌ للهوية وبطريقة تفاعلية تصنع وتتأثر بالالتزامات والتوقعات. ستُذكر واحدة من أكثر الأغاني الرياضية العراقية شعبوية في التسعينيات، حينما ردّد المغنّي «إن تكن لعبة لهم فإنها لنا قتال» ومن دون الخوض بطبيعة التحشيد الشعبي السهل الذي تتيحه كرة القدم، أذكر أن لاعبين كثيرين في العالم باتوا اليوم قادة مهمّين وملهمين في مجتمعاتهم، ولعل أهمهم جورج وياه في ليبيريا الذي تسلم قيادة بلدٍ كان حتى فترة ليست بعيدة ساحة واحدةٍ من أبشع الحروب الأهلية، فمن منا لا يريد أن يكون وياه اللاعب الغني المشهور والرئيس المحبوب؟

مكمن الخطورة في كرة القديم هو في قدرتها على تقديم نماذج غير صحّية يمكن أن تؤثر على بناء هويات الأجيال المقبلة، فالتمثيل الرياضي عموده المهارة والكفاءة والإقناع، وكذا الحالة المفترضة مع التمثيل السياسي، القائم نظرياً لا عملياً، على الإقناع والمهارة اللذين يدفعان المواطن إلى صندوق الاقتراع، وإذا ما كانت هذه النماذج قد وصلت عبر الغشّ والتزوير في الأعمار وصلة القرابة، فإنّ الفرد منا سينتابه شعوران: الأول الخذلان ورفض هذا التمثيل، والثاني إيجاد حالة من اللاوعي بأنّ الوصول إلى القمة والمجد لا يمكن أن يتحقّق إلّا عن طريق الغش. وأخيراً، أساس نجاح أي منتخب رياضي وشعبيته في قربه من الجمهور والشعب، أنّ عليه أن يكون شبَهنا، تتمحور حوله أمانينا، يعكس واقعنا، يضمّ في صفوفه أبناء الشعب، المحلي منه أو المغترب، بعيداً عن أي تدخل سياسي أو مليشياوي. هكذا تكون المثاليّة التي تبنى عليها سردية التفوّق المفترضة في بناء هوية شعب واستدامتها ضمن حدود دولةٍ ما.

(من أسرة التلفزيون العربي)

العقل المعرفي ما بعد صراع التهافت

مهنا الحبيل

الحكمة هي المصطلح الذي اعتمده بعض علماء المسلمين لتسمية الفلسفة، وأحسب أن هناك أزمة كبرى لا نزال نعانيها في الشرق المسلم، منذ معركة التهافت الكبرى، التي غطّت على مساحة كبيرة من مفهوم الفلسفة وتعاطيها لصالح الخيرية المرتجاة، من تحريك عقل البحث والتأمّل تحت سقف الوحي، لفهم طبيعة الخلق وتاريخه. وما يطرأ عليه في سنن الكون وتاريخ الشعوب، وقبل ذلك تاريخ الإنسان وجودياً ومعرفياً، ووضع ذلك أمام مقصد الاستخلاف الأعلى الذي قصدت إليه حكمة الخالق، في مفهوم إفراد العبادة دينياً، وتحسين شروط الحياة أخلاقياً، ومركزها دوماً كان في نبذ الظلم.

يقع كل ظلم على الإنسان، أياً كان هذا الإنسان، وكل حياة طيبة في بيئة صالحة، لصالح الخلق وما فُطر لأجلهم من حيوان أو زرع أو جماد، وكل ما يقتضي قوله تعالى «فلنحيينه حياة طيبة»، فأصل الحكمة في الخلق كرامة ابن آدم وحياته الطيبة في الدنيا، وتأتي الرسالات لتفسير ما لا تقود له فِطرته، وأولها سرّ الخلق وعبادة الخالق، فهي عبادة في ذاتها صلاحٌ له. هذان هما أساس الفلسفة الأخلاقية الإسلامية، غير أن هذا التعبّد في ذاته يشمل تشريعاتٍ تخصّ الحياة الدنيا والإحسان فيها، لكل من وُجد عليها، كما يشمل طبيعة التشكّل الديني والعرقي والقومي، وقصص هذه الشعوب في تاريخها وفي إساءاتها وإحسانها. فالفلسفة هنا مدار مركزي شامل، تقوم عليه إدارة المجتمعات والأمم، التي قامت على أصل القبيلة أو الفرد، وتشمل مراحل زمنية طويلة متباعدة وقصيرة، والقدرة على القيام بهذا الاستخلاف لم ولن يقوم بها إلا من أحسن فهم نص الوحي وشريعة الله في الكون.

ونُقضت العدالة في شرط التلقي والتعليم، حين ساد الظلم، ثم دخل الفساد السياسي على أهل العلم وأثّر فيهم، بل غيّر مجرى التعاطي الحر الشامل، حتى لا تصل علوم الحكمة إلى مداراتٍ تتنزع من الحاكم آليات ظلمه، وبالتالي، تُعزّز قوة الحقّ لشعوب الأمة لمواصلة طريق الاستخلاف، فانحصرت العلوم في توارث فقه الأفراد، وضعف فقه الدولة والمجتمعات، وتنظيم العلاقة بين الساسة والمسوسين، وكثر الطغيان، وحاصر المستبدّ القديم في تاريخ المسلمين أصل الحرية التي مُنحت للإنسان، وخصوصا المفكّر المسلم، فانحسرت المساحة التي ينحت فيها أهل العلم، مناهج الوصول والجسور مع بقية عالم الأرض، وباتت مصلحة الحاكم حماية تكيّته وعصبيّته، لا نشر مفاهيم الإسلام وكسب قلوب الناس، ودفع كل وسيطة سلام لتحقيق الغرض الأعلى، العبادة والسلم الأهلي للعالم الجديد الذي بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم، في توقيت مفصلي من تاريخ العالم وزمن النبوات، فهذا الصعود المفترض، الذي يأتي في سياق تجديد مرجعية الوحي، لعبادة الخالق ولعمران الكون، لمن أسلم واهتدى، أو من ضلّ وكفر، وأعطاه النظام الإسلامي الإنساني حقّ الحرية والمشاركة والمواطنة العالمية، مع تفعيل هذه المرجعيات في نماذج التعدّد والاختلاف في أحوال العصور، وفي طبائع المجتمعات والشعوب، بموجب اختلافها. وليس بقهر ذواتها على نمط محدّد يحمله العرب لقهر الإنسان الآخر، ولذلك سادت الفكرة المسلمة من دون عمليات إبادة، وتعدّدت الشعوب المؤمنة برسالتها، من دون حروب إبادة متبادلة كالتي شنّها العالم الغربي القديم والجديد. لكن هذا الخط التكليفي القرآني لم يواصل رحلته في بلاد المسلمين، في عهود السلاطين المتعددة، وانفصل مفهوم الخليفة الراشد، من بعد نموذج عمر بن عبد العزيز، وكان قد بدأ البغي وعسف الناس وقهرهم قبله، فتأثرت حركة العلماء، ولكنها بقيت تقاوم تدخّل الحاكم، غير أنها ضعفت رويداً رويداً. ورغم أن العنف السلوكي والردّة الحضارية كانت تتطابق في عهود الزحف المسيحي والصراع الوثني القديم في العالم الغربي، تماماً كما كان ذلك في التتر، إلا أنها تغيّرت بعد الفكرة الدينية الجديدة، في ذات القومية التترية بعد تمكّن الإسلام فيهم. وهنا نفهم حالة الضعف في حاضر العالم الإسلامي القديم، الذي هيمن عليه الظلم

> نقضت العدالة في شرط التلقي والتعليم، حين ساد الظلم، ثم دخل الفساد السياسي على أهل العلم وأثّر فيهم

والتوظيف العقائدي، لصالح المستبدّين، ولم تواصل رسالة العلماء نهضتها الذاتية، بناء على الأصول المتقدّمة في فهم فلسفة الإسلام الكبرى، وهنا نفهم المآل الذي ورثته حقبة الغزالي، وهي القرن الخامس الهجري، وانتشار علمه مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، ثم القرن الذي بعده الذي برز فيه الإمام ابن رشد، حيث غرق هذا العالم المسلم في جدل اللاهوت (في ذات الله)، وهو العقل الذي كان يملك قوة معرفية دلالية عميقة من أصل الوحي، ومن تحريرات الفكر اليقيني فيه، من حيث عجز العقل التجريبي عن إدراك ذات الخالق، كاستحالة عقلية فهمية مجرّدة. وانطلق في سفسطاتٍ لا تنتهي، تعوّذ منها كلا الغزالي وابن رشد، تجمع بين مسائل الباطنية وميراث الفلسفة اليونانية والإغريقية، وهو ما يمكن وعيُه بصعوبة للباحث، في حين يغرق فيه القارئ المبتدئ، غير أن هذه الخلاصة ظاهرة، ويقفز سؤالها أين المصلحة المعرفية في ثورة هذا الجدل، وما هي تراتبيّته في العقل المعرفي الإسلامي، هذا العقل المغيّب اليوم في زمن الفلسفة الأخير، هو الفريضة المعطّلة في مهمّة الحكمة الإسلامية، ولا يزال غيابُه سبباً قوياً للتيه العالمي في توحّش الحداثة.

(كاتب عربي في أونتاريو)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads